

المجلد الأول

من تاريخ العلامة ابن خلدون

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الغني بلطفه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي
وفقه الله تعالى:

الحمد لله الذي له العزة والجبروت ويده الملك والملكوت وله الأسماء الحسنى
والنعوت العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه السكوت القادر فلا يعجزه شي في
السموات والأرض ولا يفوت. أنشأنا من الأرض نسياً واستعمرنا فيها أجيالاً وأمماً ويسر لنا
منها أرزاقاً وقسماً. تكنفنا الأرحام والبيوت ويكفلنا الرزق والقوت وتبلينا الأيام والوفوت
وتعتورنا الآجال التي خط علينا كتابها الموقوت وله البقاء والثبوت وهو الحي الذي لا يموت
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي العربي المكتوب في التوراة والإنجيل
المنعوت الذي تمخض لفضاله الكون قبل أن تتعاقب الأحاد والسبوت ويتباين زحل
واليهموت وشهد بصدقه الحائم والعنكبوت وعلى آله وأصحابه الذين لهم في محبته واتباعه
الأثر البعيد والصيت والشمل الجميع في مظاهره ولعدوهم الشمل الشتيت ﷺ وعليهم ما
اتصل بالإسلام جده المبخوت وانقطع بالكفر حبله المبتوت وسلم كثيراً.

أما بعد:

فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال وتشد إليه الركائب والرحال
وتسمو إلى معرفته السوق والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأقوال ويتساوى في فهمه العلماء
والجهال إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى
تنمو فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأنديّة إذا غصها الاختفال وتؤدي إلينا
شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال واتسع للدول فيها النطاق والمجال وعمروا الأرض
حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها
دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن
يعد في علومها وخليق.

وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها كأبي جرير الطبري ومحمد بن يحيى ومحمد بن سعد وخطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها وزخرف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها. وأدوها إلينا كما سمعوها ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب قليل والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل والتقليد عريق في الآدميين وسليل والتطفل على الفنون عريض وطويل ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل. والحق لا يقاوم سلطانه والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه والناقل إنما هو يملئ وينقل والبصيرة تنقد الصحيح إذا ثقل والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل.

هذا، وقد دون الناس في الأخبار وأكثروا وجمعوا تواريخ الأمم والدول في العالم وسطروا. والذين ذهبوا بفضل الشهرة والأمانة المعتبرة واستفرغوا دواوين من قبلهم في صحتهم المتأخرة هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل ولا حركات العوامل مثل ابن إسحاق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الأسدي والمسعودي وغيرهم من المشاهير المتميزين عن الجماهير وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الأثبات ومشهور بين الحفظة الثقات إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم واقتفاء سنتهم في التصنيف واتباع آثارهم والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون. أو اعتبارهم فللعمران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار وتحمل عليها الروايات والآثار.

ثم إن أكثر التواريخ هؤلاء عامة المناهج والمسالك لعموم الدولتين صدر الإسلام في الآفاق والممالك وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والمشارك. ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والأمم والأمر العمم كالمسعودي ومن نحا منحاه.

وجاء من بعدهم من عدل عن الإطلاق إلى التقييد ووقف في العموم والإحاطة عن الشأو البعيد فقيده شوارد عصره واستوعب أخبار أفقه وقطره واقتصر على أحاديث دولته

ومصره. كما فعل أبو حيان مؤرخ الأندلس والدولة الأموية بها وابن الرقيق مؤرخ إفريقية والدول التي كانت بالقيروان.

ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد وبليد الطبع والعقل أو متبلد ينسج على ذلك المنوال ويحتذي منه بالمثل ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال واستبدلت به من عوائد الأمم والأجيال. فيجلبون الأخبار عن الدول وحكايات الوقائع في العصور الأول صوراً قد تجردت عن موادها وصفاحاً انتضيت من أغمارها ومعارف تستنكر للجهل بطارفها وتلاذها إنما هي حوادث لم تعلم أصولها وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت فصولها يكررون في موضوعاتهم الأخبار المتداولة بأعيانها اتباعاً لمن عني من المتقدمين بشأنها ويغفلون أمر الأجيال الناشئة في ديوانها بما أعوز عليهم من ترجمانها فتستعجم صحفهم عن بيانها.

ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقاً محافظين على نقلها وهماً أو صدقاً لا يتعرضون لبدايتها ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها وأظهر من آيتها ولا علة الوقوف عند غايتها فيبقى الناظر متطلعاً بعد إلى افتقاد مبادئ الأحوال ومراتبها مفتشاً عن أسباب تراحمها أو تعاقبها باحثاً عن المقنع في تباينها أو تناسبها حسبما نذكر ذلك كله في مقدمة الكتاب.

ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار وذهبوا إلى الاكتفاء بأسماء الملوك والاقتصار مقطوعة عن الأنساب والأخبار موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبار كما فعله ابن رشيقي في ميزان العمل ومن اقتفى هذا الأثر من الهمل. وليس يعتبر هؤلاء مقال ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال لما أذهبوا من الفوائد وأخلوا بالمذاهب للمؤرخين والعوائد.

ولما طالعت كتب القوم وسبرت غور الأمس واليوم نبهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم وسمت التصنيف من نفسي وأنا المفلس أحسن السوم. فأنشأت في التاريخ كتاباً رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجاباً وفصلته في الأخبار والاعتبار باباً باباً وأبدت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً وبنيت على أخبار الجيلين الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار وملؤوا أكناف النواحي منه والأمصار وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار ومن سلف من الملوك والأنصار وهم العرب والبربر إذ هما الجيلان اللذان

عرف بالمغرب مأواهما وطال فيه على الأحقاب مئواهما حتى لا يكاد يتصور فيه ما عداهما ولا يعرف أهله من أجيال الآدميين سواهما. فهذبت مناحيه تهذيباً وقربته لأفهام العلماء والخاصة تقريباً وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكاً غريباً واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً وطريقة مبتدعة وأسلوباً. وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني من الأعراض الذاتية وما يمتعك بعلى الكوائن وأسبابها ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها حتى تنزع من التقليد يدك وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال ما بعدك.

ورتيبه على مقدمة وثلاثة كتب:

المقدمة: في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بمغالط المؤرخين.

الكتاب الأول: في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب.

الكتاب الثاني: في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد وفيه الإلماع ببعض من عاصروهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والإفرنجية.

الكتاب الثالث: في أخبار البربر ومن إليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول.

ثم كانت الرحلة إلى المشرق لاجتلاء أنواره وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره فأفدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار ودول الترك فيما ملكوه من الأقطار وأتبعته بها ما كتبه في تلك الأسطار وأدرجتها في ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أمم النواحي وملوك الأمصار والضواحي سالكاً سبيل الاختصار والتلخيص مفتدياً بالمرام السهل من العويص داخلاً من باب الأسباب على العموم إلى الأخبار على الخصوص فاستوعب أخبار الخليقة استيعاباً وأدلل من الحكم النافرة صعباً وأعطى لحوادث الدول عللاً وأسباباً وأصبح للحكمة صرناً وللتاريخ جراباً.

ولما كان مشتملاً على أخبار العرب والبربر من أهل المدن والوبر والإلماع بمن عاصروهم من الدول الكبر وأفصح بالذكرى والعبر في مبتدأ الأحوال وما بعدها من الخبر

سميته: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر».

ولم أترك شيئاً في أولية الأجيال والدول وتعاصر الأمم الأول وأسباب التصرف والحول في القرون الخالية والملل وما يعرض في العمران من دولة وملة ومدينة وحلة وعزة وذلة وكثرة وقلة وعلم وصناعة وكسب وإضاعة وأحوال متقلبة مشاعة وبدو وحضر وواقع ومنتظر إلا واستوعبت جملة وأوضحت براهينه وعلله. فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمته من العلوم الغريبة والحكم المحجوبة القريبة. وأنا من بعدها موقن بالقصور بين أهل العصور معترف بالعجز عن المضاء في مثل هذا القضاء راغب في أهل اليد البيضاء والمعارف المتسعة الفضاء النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء. فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة والاعتراف من اللوم منجاة والحسن من الإخوان مرتجاة والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل.

وبعد أن استوفيت علاجه وأنرت مشكاته للمستبصرين وأذكيت سراجيه وأوضحت بين العلوم طريق منهاجه وأوسعت في فضاء المعارف نطاقه وأدرت سياجه وأتحفت بهذه النسخة منه خزانة مولانا السلطان الإمام المجاهد الفاتح الماهد المتحلي منذ خلع التهام ولوث العمام بحلى القانت الزاهد المتوشح من زكاء المناقب والمحامد وكرم الشائل والشواهد بأجل من القلائد في نحور الولايد المتناول بالعزم القوي الساعد والجهد المؤاتي المساعد والمجد الطارف والتالد ذوائب ملكهم الراسي القواعد الكريم المعالي والمساعد جامع أشتات العلوم والفوائد وناظم شمل المعارف الشوارد ومظهر الآيات الربانية في فضل المدارك الإنسانية بفكره الثاقب الناقد ورأيه الصحيح المعاهد النير المذاهب والعقائد نور الله الواضح المرشد ونعمته العذبة الموارد ولطفه الكامن بالمراصد للشدائد ورحمته الكريمة المقاليد التي وسعت صلاح الزمان الفاسد واستقامة المائد من الأحوال والعوائد وذهبت بالخطوب الأوابد وخلعت على الزمان رونق الشيايب العائد وحجته التي لا يبطلها إنكار الجاحد ولا شبهات المعاند أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان الكبير المجاهد المقدس أمير المؤمنين أبي الحسن ابن السادة الأعلام من بني مريـن الذين جددوا الدين ونهجوا السبيل

للمهتدين ومحو آثار البغاة المفسدين. أفاء الله على الأمة ظلاله وبلغه في نصر دعوة الإسلام آماله. وبعثته إلى خزانته الموقفة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حاضرة ملكهم وكرسي سلطانهم حيث مقر الهدى ورياض المعارف خضلة الندى وفضاء الأسرار الربانية فسيح المدى والإمامة الكريمة الفارسية العزيزة إن شاء الله بنظرها الشريف وفضلها الغني عن التعريف تبسط له من العناية مهاداً وتفسح له في جانب القبول آماداً فتوضح بها أدلة على رسوخه وأشهاداً.

ففي سوقها تنفق بضائع الكتاب وعلى حضرتها تعكف ركائب العلوم والآداب ومن مدد بصائرهم المنيرة نتائج القرائح والالباب. والله يوزعنا شكر نعمتها ويوفر لنا حظوظ المواهب من رحمته ويعيننا على حقوق خدمتها ويجعلنا من السابقين في ميدانها المجلين في حومتها ويضفي على أهل إيالتها وما أوى من الإسلام إلى حرم عمالتها لبوس حمايتها وحرمتها وهو سبحانه المسؤول أن يجعل أعمالنا خالصة في وجهتها بريئة من شوائب الغفلة وشبهتها وهو حسبنا ونعم الوكيل.

